Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لا يكون (ناظراه – ناظراه ، أو دعانى – أو دعانى) ولكننا لو تدبرنا الأمر فسنجد فيه شيئاً آخر ، فالتعبير فى هذا البيت الأخير يقوم على ألفاظ ملتبسة ambiguous يحتمل ظاهرها معنين ، وهذا الفن التعبيرى الاحتمالى ، أو الـ Paradox يدفع بقدر من الغموض الذى يغلف الصورة الذهنية أو المعنى بما يشبه الضباب ، الذى لا يلبث أن ينقشع بالوضوح الزاحف مع استكمال البيت أو الأبيات ، ومن ثم تتحدد معالم المعنى ، أو تقترب من التحديد . لقد قرأ عبد القاهر بيت البستى على أن « ناظراه » الأولى فعل أمر (رجاء أو التماس) لمخاطبين ، أما الثانية فهى عيناه ، وهى فاعل جنى ، ولكن هل هناك حقًّا ما يحول دون العكس ؟ هل هناك ما يحول دون أن تكون الكلمتان بمعنى واحدٍ هو العينان ؟ ليس هناك ما يحول دون الاعتبار الأول ، ولكن الثانى غير ممكنٍ نحويًّا لوجود « أمت » بالجزم جوابا للأمر « دعانى » الذى يوافقه أن يكون معطوفاً ، وإذن فلن يتحقق التصور للمعنى إلاّ بعد بلوغ نهاية البيت ، وهذا التخلخل فى التركيب ، يؤدى إلى تخلخل فى المعنى ، ومن ثم فى علاقات أجزاء التعبير ، وهذا كله مقصود لرسم معنى القلق العاطفى ومعاناة الحب ، فينتهى الأمر بالتجنيس فى هذا المثال إلى أن يصنع صورة نفسية باطنية لتعثر الحب وضياع الوضوح عنده ، وقد عبر عن هذا فنيًّا بأقوى وسائل الإيحاء والتصوير ، حين لجأ إلى كلمات محتملة المعنى ملتبسة الدلالة قابلة لأكثر من سياق . وإذن فإنه من الخطل اعتبار التجنيس أو الجناس محسناً لفظيًّا كما زعموه . على أن الأمر فيما سموه محسناً معنويًّا أشد ظهوراً ، ويكفى أن ننظر فى الطباق وتداخله مع المجاز فى حركة واحدة ، فإذا قال الشاعر :

حلو الشمائل وهو مر باسل يحمى الذمار صبيحة الإرهاق

أو قال الآخر :

إذ نحن سرنا بين شرق ومغرب تحرك يقظان التراب ونائمه

فلسنا ندرى على أى وجه انحصر الحسن فى المطابقة بين حلو ومر ، ويقظان ونائم ، وكيف يمكن اعتبار هذا من قبيل المحسن المعنوى وهو صميم الصورة وجوهر المعنى ! ! بل قد يثير حواراً فلسفيًّا يحاول أن يوفق بين الأضداد ، كما فى تأويلهم لقول قطرى بن الفجاءة :

ثم انصرفت وقد أصبت ولم أصب جذع البصيرة قارح الأقدام